مجلة روافد للبحوث و الدراسات / مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة غرداية / العدد الثامن (جوان 2020 م)
E: 2588-1787 / P: 2543 - 3563
/http://rawafid.univ-ghardaia.dz

الفلاحة والنَّخيل في أدبيَّاتِ التربيَّةِ
عند الشيخ محمد عليّ الدبُّوز

د. محمد حدبون
أستاذ محاضر-أ-
قسم العلوم الإسلاميَّة- جامعة غرداية
hadboune.mohammed@univ-ghardaia.dz

ملخص

يُشكِّل الاهتمامُ بالفلاحة والنَّخيل شكلاً من أشكال التربيةِ عند المؤرِّخ محمد علي دبُّوز، وبالتنقيب في أصول تنشئة الأعلام الذين ترجَم لهم، وبخاصة أعلام الإصلاح في الجنوب، المحضن الطبيعيّ للنخلة، نجد أنَّ النخلة وقبلَها الفلاحةَ محضن تربويٌّ هام، "تُربِّي الإنسان أحسن تربية، وتحدث أعظم الآثار في كلِّ أنحائه، وتجعله قويا بطلا! هذا ما جعل الدبُّوز ينعى على شباب زمانه، حين تركوا أصول الأجداد في التربية ونمط العيش والحياة، بله شباب اليوم! وفي المقال رصدٌ لمكانة النّخلةِ في فكر مؤرِّخنا ووجدانه، ولحظ دقيقٌ لجنباتِ الاهتمام بالفلاحة، في اللُّغة التي كتبَ بها، وفي الجوانب الوظيفيَّة المنبِئةِ عن خبرته بالموضوع.

الكلمات المفتاحية: الدبُّوز؛ الفلاحة؛ النخلة؛ التربية؛ مزاب؛ أعلام الإصلاح.

Abstract

The interest in the cultivation and palm trees is a form of education according to the historian Muhammad Ali Dabbouz, and by exploring the origins of the upbringing of the flags for whom he translated, especially the flags of reform in the south, the natural nursery of the date palm, we find that the palm tree and before it the cultivator is an important educational incubator. This is what made Debbouze mourn for the youth of his time, when they left the ancestral origins in their upbringing, lifestyle and life. In the intervention, there is a monitoring of the date palm's position in the thought and consciousness of our historian, and a careful note of the aspects of interest in agriculture, in the language in which he wrote, and in the functional aspects that predict his experience with the subject.

Key words: Dabbouz, cultivation, palm, education, flags of reform

مقـدمة:

1. محمد علي دبّوز(1919-1981م):

يُعد أحد أعلام التاريخ والأدب والفكر في النهضة الإصلاحيَّة، بوادي مزاب، ينحدر من بلدة بريان ولاية غرداية(جنوب الجزائر)، تلقَّى تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه، ثمَّ انتقل إلى القرارة ليلتحق بالبعثة العلمية في أوائل الثلاثينيات، ويزاول دراسته الثانوية بمعهد الشباب - معهد الحياة - في أواخر الثلاثينيات، ثم التحق بالبعثة المزابية بتونس، سنة 1942م. ومع اشتداد رحى الحرب العالمية الثانية غامر سنة 1944م بالسفر إلى القاهرة، عبر حدود ليبيا، مشيًا على الأقدام؛ وهناك رابط بدار الكتب المصرية قارئاً، والتحق بجامعة القاهرة مستمعاً، إذ لم يكن يمتلك الشهادة التي تخوّل له الالتحاق بها رسميا.

عاد إلى وادي ميزاب سنة 1948م، والتحق بمعهد الحياة معلِّماً، وقام بدور كبير في تطوير برامج الدراسة بالمعهد، وأدخل موادَّ جديدة، مثل: علم النفس والتربية.

له في مجال التأليف إسهامات عدّة، نذكر من أهمّها: «تاريخ المغرب الكبير»، في ثلاثة أجزاء؛ و«نهضة الجزائر الحديثة» في ثلاثة أجزاء؛ و«أعلام الإصلاح في الجزائر»[1]

2. عمَّتُكم النخلة.

عمَّتُكم النَّخلة!... تلكم هي مقولةٌ تُراثيَّة حُفِّظنَاها صغارًا؛ حين ردَّدها الآباء على مَسامعنا، ووَعيْنَاها كباراً ونحن نشهد ما للنَّخلة من فوائد؛ هي مقولةٌ رسمت مكانة النخلة في حَياتنا، ومَع لبان أمَّهاتِنا ارتوينا حُبَّ النخلة، تلك الشجرةُ المباركة التي خصَّها اللهُ عزَّ وجلَّ وثمرَها بالذكر في القرآن الكريم في أكثر من موضع؛ تنوَّع حضورُها ضِمن طيِّباتِ الدُّنيا ونعيم الآخرة. ومع تكرُّر ذكرها في القرآن الكريم، ساغَ لنا القولُ إنَّ الدافعَ الدينيَّ في إعطاء النخلة مكانتَها له حُضوره اللافت، بذلك يغدُو الاهتمام بالنخلة أُخرويًّا، قبل الاعتبارات المعيشيَّة والاقتصاديَّة، وهو ما عناه القطب اطفيَّش في تفسيره لقوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [سورة يس :34]. "وذكر

1) **ينظر: إبراهيم بحاز وآخرون: معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر، 53/2.**

النَّخِيل دُون التمر مع أنَّ التمرَ هو المطابق للحَبِّ والأعناب؛ تعظيماً للنخل فإنَّ فيه مزيد نفع وإيثار الصنع".

وفي السنة النبوية الشريفة أحاديثُ كثيرة وآثارٌ تعكِس مكانةَ النخلة، وتجُلّي أبعادَها الاجتماعية والاقتصاديَّة، ولطالما تبادل العوامُ من الناس الأثر المحفوظ «أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمُ النَّخْلَةَ»[1] والأثر وإن كان فيه مقال، إلاَّ أنَّه مُفعَم بمعنى الاعتناء بالنخلة؛ لكن يُقوّيه ويشهد له أحاديثُ أخرى ثبَّتت مكانة النخلة في النفوس، من ذلك ما روته عَائِشَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ».[2] وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفْطِرُ عَلَى رُطَبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رُطَبَاتٌ، فَتَمَرَاتٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَمَرَاتٌ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ".[3]

وروى الأصبهاني أبو نعيم في "الطبّ النبوي" حديثا عن سلمة بن قيس مرفوعا «أطعموا نساءَكم في نِفاسهن التمرَ فإنَّه مَن كان طعامُها في نِفاسها التمر خرج ولدُها حليمًا، فإنَّه كان طعامُ مريم حين ولدت التمرَ، ولو علم طعامًا هو خير لها من التمر لأطعمها إياه».[4] ونجد في الطبراني أيضا عن الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّخْلُ وَالشَّجَرُ بَرَكَةٌ عَلَى أَهْلِهِ، وَعَلَى عَقِبِهِمْ بَعْدَهُمْ، إِذَا

---

1) ولفظه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكرموا عمَّتكم النخلة، فإنها خُلقت من فَضلة طينة آدم، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة ولدت تحتها مريم بنت عمران، فأطعموا نساءكم الولّد الرطب فإن لم يكن رطبا فتمرا». وهو ضعيف جدا. أخرجه أبو يعلى 455، و ابن حبان في «المجروحين» 3/ 44، و ابن الجوزي في «الموضوعات» 1/ 184، و أبو نعيم في «الحلية» 6/ 123.

2) رواه مسلم، باب ادخار الأقوات ونحوه من الأقوات؛ حديث رقم: 2046. و أبو داود، باب في التمر، حديث رقم: 3831. ورواه ابن ماجة، باب التمر، حديث رقم 3327. ورواه أيضا عن عبيد الله بن أبي رافع، عن جدته سلمى مرفوعا: «بيت لا تمر فيه، كالبيت لا طعام فيه» حديث رقم: 3328.

3) رواه أخرجه أحمد 164/3، أبو داود "2356"، والترمذي "696"، والدارقطني 185/2، والحاكم 432/1، والبيهقي 239/4 كلهم من طريق عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان، عن ثابت البناني، عن أنس، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الدار قطني: إسناده صحيح، قال الترمذي: حسن غريب.

4) الأصبهاني، أبو نعيم: الطبّ النبويّ؛ 727/2.

كَانُوا لِلَّهِ شَاكِرِينَ».[1] ولعلَّ مجموعَ هذه الأحاديث يُقدِّم لنا تفسيرا لعديد العادات التي تعرفها المجتمعات التي جعلت من التمر أساسا لقوتها ومعيشتها.

وامتدادا للنصوص الشرعيَّة وجدنا صدًى من الأقوال في كتب التاريخ والسِّيَر عند الإباضية، تحضُّ على العناية بالنخيل، وتُرغِّب في امتلاك الأجنَّة وعدم بيعها، من ذلك ما أورده الوسياني: "قال أبو عبد الله: بائع النخل مُمحِقٌ، ومشتريها مُعَان" وعنه أيضا: «حبُّ النخيل من الإيمان وبغضُها من النفاق». هذا الاهتمامُ بغرس النخيل واعتقاد البركة والأجر فيه متوارَثٌ لحدِّ الآن لدى سكَّان وارجلان وأريغ وسوف وبلاد الزيبان ووادي ميزاب؛ وعلى مرِّ التاريخ كانت ولا زالت عماد الاقتصاد وأساس الأقوات، "فإذا أرادوا ضرب اقتصادها قطعوا النخيل وردموا الآبار وتركوها قاعًا صفصفًا كأن لم تغن بالأمس".[2]

وعبر التاريخ كان المزابيون أيضا يطبّقُون مبدأ الاكتفاء الذاتي، وظلّت النخلةُ محورَ اقتصادِهم، منها يتقوَّتُون، وبعناصرها يتَّخذُون سقوفَ بيوتهم، ويصنعون أثاثهم وأوانيهم، وفي ظلالها يستريحون مِن تَعب الكدِّ وحرارة الطقس صيفا، وتحتها يزرعون البقول والفواكه.[3] ويوجد بمزاب ما يقربُ مِن مائة صنف من أصناف النخيل، سبعة عشر منها تغطي حوالي 90% من واحات مزاب[4]

3. الفلاحة والنخيل، مبرّرات التناول:

ما مناسبة حديثِ محمد علي دبّوز عن الفلاحة والنخيل؟. سؤال نريد أن نستشفَّ مِن خِلاله مَكانة النّخلةِ في فكر مؤرّخنا ووجدانه، ونرصُدَ جنباتِ هذا الاهتمام بالفلاحة، في اللَّغة التي كتبَ بها، وفي الجوانب الوظيفيَّة المنبِئة عن خبرته بالموضوع.

حكايةُ الشيخ الدبُّوز مع الفلاحة والنخيل تبدأُ مع البحث في أصول تنشئة الأعلام الذين ترجَم لهم، وبخاصة أعلام الإصلاح في الجنوب، المحضن الطبيعيّ للنخلة؛ فإن نحن

1) الطبراني: المعجم الكبير؛ 84/3.

2) بوعصبانة، عمرلقمان: معالم الحضارة في وارجلان، ص193.

3) الحاج سعيد، يوسف: تاريخ بني مزاب، الحاج سعيد، ص201.

4) bulletin d agronomie saharienne vol n3 juin 1975; 45. نقلا: الحاج سعيد، يوسف: تاريخ بني مزاب، ص201.

ظفرنا بمادة معتبرة تتعلَّق بالموضوع في "أعلام الإصلاح في الجزائر" فإنَّا لم نظفر إلاَّ بنزر يسير من المادة في أعماله الأخرى مثل "تاريخ المغرب العربي الكبير" و"نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة". وسرُّ الاهتمام بأصول نشأة الأعلام باعتبار أنَّ "العبقريةَ ثمرةٌ لا تخلُق نفسَها، ولكن تكوّنُها الأصولُ، وتُنعِشُها البيئةُ، فإذا أردنا أن نعرِف أسبابَها وجب دراسة الأجداد والبيئة، فهما أكبر الأسباب فيها"[1] وهنا نسجِّل للدبُّوز المؤرّخ ضابطًا منهجيًّا يتعلَّق بأصول الكتابة التاريخية، إنَّه ينعى على الذين يتنكَّرون للبحث في الأصول والتفتيش في الجذور، وهو خلل منهجي في الكتابة التاريخية؛ "إنَّ هذه الأسباب [الأصول والبيئة] مما يغفل عنه أغلب المؤرّخين العرب الذين يكتبون تاريخَ الزعماء، وترى البعضَ يرى أنَّ دراسة هذه العوامل من الإسهاب المكروه، وفضول القول؛ إنهم يحصرون نظرَهم في الزعيم وأعماله، وهو الشيء السافر الذي يعرفه العامة، أما أصول عبقريَّتِه وهو ما لا يستطيع معرفته إلاَّ الخاصة فيسكتون عنه، فيكون تاريخهم مبتورا، وما كتبوه على غير أساس، يُحيط به الغموض وتكتنفُه الظلمات، ويورث للقارئ الألمعيّ الحيرة".[2] وفي مقام آخر يقول: "إنّ الحديث عن العوامل التربويَّة العظيمة التي كوَّنت الشخصيَّة العظيمة من أهمّ ما يجبُ أن يهتمَّ به المؤرّخ، لأنها أسرار خفيَّة تُنسى لا يستطيع الاهتداء إليها جميع الناس".[3] وبالمحصِّلة نراه يضع قاعدة منهجيَّة في الكتابة التاريخية، "إن التاريخ للاقتداء، وبيان أسباب العبقريَّة فرض على المؤرّخ، لتأخذ بها أمَّتُه وكلُّ قارئ، فيتقوَّى نبوغُها وتسطع فيها العبقريَّات".[4] وهو ما جعل الدبُّوز ينعى على شباب زمانه، حين تركوا أصول الأجداد في التربية ونمط العيش والحياة، بله شباب اليوم!

إنَّ ما يهُمُّنا من دراسة نمطِ حياةِ علَمٍ أو أمَّةً ما، هو جعلُ الزمنِ الغابر محلَّ الدرس ماثلاً أمام العين، متحرِّكا تدبُّ فيه الحياة؛ فالدراسة العميقة المشبَعة بالملاحظة الدقيقة تجعل الدارس يخرج من شرنقة زمانه ليَحيَا بيئةَ قومٍ بادوا وغبروا، وغنيٌّ عن القول أنَّ البحث في أصول تنشئة العظماء لم يكن حِكرا على مزاب، بل هو طبعُ العظماء أينما كانوا

1) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 91/1.

2) المصدر نفسه؛ 92/1.

3) المصدر نفسه ؛ 08/1.

4) المصدر نفسه ؛ 92/1.

"تلك البيئة التي طبعتهم بالفضل، وثقفت عقولهم ثقافة صحيحة، فكانوا الأجيال المباركة التي بدأت للجزائر نهضتها، بما أنجبت من زعماء رفعا لواء الدين، وقادوا الأمة طريق الصلاح والإصلاح".[1]

4. الفلاحة المحضن التربوي للعظماء:

عرفَت منطقة مزابُ النشاط الفلاحي منذُ القدم، بل كانت هي أساسَ العيش ومورده قبل التِّجارة، ورغم أنَّ منطقة مزاب بلدٌ قاحلٌة، تُحيط بها جبالٌ جرداء في صحراء يابسة، لا عيون جارية فيها، ولا أمطار موسميَّة تُغادِيها وتُراوحها كما يقع في الشمال، ولا مياه قريبة من السطح فيسهل استنباطها.. ومع ذلك كلِّه لم يمنع أن يكون لأغلب الأسر في مزاب بستان خارج المدينة. لقد كان "المزابيون يحترمون الفلاحة ويعتزون بها، فبعد رجوع التاجر منهم من تجارته في الشمال في شهور عطلته يعكف على الفلاحة في بستانه، لا يتسكَّع في الأسواق، وكذلك إذا تقاعد وكفاه شركاؤه الذين كانوا أجراءه أمرَ التجارة، فإنه يعكف على فلاحة بستانه، لا يركن إلى الكسل والملذات".[2] ولم يكن إحياءُ أرضٍ مواتٍ بالأمر الهيّن، بل كان يتطلَّب جهدا متواصلا حتى لا تضيع الجهود، كما يتطلَّب أيضا نفقات باهظة؛ إنَّ المسألة ليست مادةً فحسب، بل مبدأُ حبِّ الوطن وعمارته يغذِّي روح التحدِّي والإصرار، وإنّك لتعجبُ كيف أنَّ "صاحب البستان مع كدحه ينفق نفقات طائلة على الفلاحة من تجارته، إن الفلاحة لا تكفي نفسها، إنها عبء ثقيل على صاحبها، ولكن عمارة البلد واجبة.

ولم تُثنِ الصعوباتُ كلُّها المزابيَّ عن الفلاحة بل "الفلاَّح المزابي يقضي كلَّ نهاره وجزءا كبيرا من ليله في حقله وبستانه في كدٍّ وأعمال مضنية، يخدم الأرض ويهيِّئها للزراعة، ويصلِح زروعه، ويسقيها من الآبار العميقة، ينزح منها بجَمَله أو بغله أو حماره أو كليهما، وقد يكون فقيرا مدقعا لا يطيق ثمن دابة ومؤونتها فينزح الماء بساعديه، يجر الدلو الكبيرة التي تسع ثلاثين لترا وأكثر.. لا يرده الصيف بحره القاتل، ولا الشتاء ببرده القاسي ببرده الشديد عن

1) المصدر نفسه ؛ 92/1.

2) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 92/1.

عمله، وقد قدر بعض العلماء ما يقطعه الفلاح المزابي أمام بئره في النزح ذاهبا وآيبا بأربعين كيلومتر في اليوم"[1]

ويروي الدبوزُ عن الشيخ بيوض في معرِضِ حديثه عن سيرة أجداده أنهم كانوا "يحترفون ثلاثَ حرف، الفلاحة، عندهم أجنَّة يفلحونها ويغرسون فيها النخيل والأشجار، ولهم عبيد وموال يستعينون بهم في أشغال الفلاحة الواسعة المضنية... والحرث في البادية مع الأعراب.. يعطونهم البذر والزاد، ويشتركون معهم في مصاريف الزراعة والحصاد، ويخرجون معهم للزراعة والحصاد، كما يشتركون مع الأعراب في تربية المواشي، الغنم والإبل، وكان الرعاة من البادية.. وكانت تلك الأراضي بورا وفي البادية القحلاء، ولكنها إذا أمطرت وزرعت تغلُّ لأصحابها خيرا كثيرا من البر والشعير، الذي هو قوتهم الضروري،لا يجلبون شيئا من الخارج إلا زيت الزيتون، وبقية ذلك من زراعتهم في القرارة والبادية، وقد عاشوا في يسر ورخاء بكدّ يمينهم، وبفضل نشاطهم في الفلاحة والزراعة...والتجارة، وكان أغلب التجارة بالمقايضة"[2]

وحين كانت الإرادة الصلبةُ والعزيمة الصخريَّة تميّز إنسان ذلك العهد، حيث الناس يعتمدون في قوتهم ولباسهم على ما عملت أيديهم، و–على ما يحكي الشيخ بيوض- كنت "ترى القوافل الكبيرة التي تتركَّب من مائة جمَل وأكثر، ذاهبة آيبة بين القرارة والمدن المجاورة (مسعد، الجلفة، بوسعادة)، مثقلة بالصادرات والواردات".[3] ومن جملة المزروعات التي كانت محلَّ اهتمامهم زرع "المزابيون القمح والشعير والفول وغيرها من المزروعات الشتوية والصيفية. وغرسوا "من الأشجار المثمرة: العنب والتين والخوخ والمشمس والرمان والليمون والبرتقال وغيرها"[4] وإن أفادتنا الفكرة بأنواع الثمار التي كانت تزرع إلى جنب التمر، فإنَّها كذلك تعطي لنا فكرة عن نمط من حياتهم في إعداد قوتهم، فالمشمس كان يؤكل غضاً في حينه، وكانوا يجفّفونه ليكون مكمّلا لبعض الأغذية

1) المصدر نفسه ؛ 1/96-97.

2) دبوز، محمد علي: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة؛ 1/180.

3) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 1/94.

4) دبوز، محمد علي: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة؛ 1/180.

(الهرماس)، وربما بعض أنواع الكسكسي المخلوط بالرمان، أو حتى بعض أنواع الأدوية والعقاقير.

ولله درُّ الدبوز حين لخَّص ذلك بقوله "إنَّ جَدبَ الأوطان أورثهم الخصب في النفوس، وفقره كان سببا للغنى في الأخلاق؛ بذلك اعتُبرت صعوبة تحصيل الأقوات بالفلاحة أو التجارة "تُربّي الإنسان أحسن تربية، وتحدث أعظم الآثار في كلِّ أنحائه، وتجعله قويا بطلا!".[1]

وإن بدا الأمر بالنسبة لجيل هذا الزمان ضربا من المبالغةً، أو دربا لتسلية النفس، فإنَّ الدبوز الذي تقصَّد الإيغالَ في جذور نشأة العظماء وتعمَّد إبراز طريقة عيشهم استبق السؤال عن ماهية "الغنى الذي تخلقه الفلاحة عامة وفي مزاب خاصة في نفوس الفلاحين"[2] سيجيب وفي حسبانه أنه سيضع قواعدَ تربويَّة تستهدف النشء الذي يكتب له، وهنا نلمس جانبا من شخصية الدبُّوز التربوية المرفرفة على أجنحة التاريخ، ومن الممكن أن نُوجِز ذلك في فوائد منها:

أ- **صقل الجوانب الشخصيَّة للفرد:**

تحت عنوان الفوائد التربويَّة العظيمة للفلاحة في مزاب يُوردُ لنا مؤرِّخُنا جملةً من المزايا النبيلة للفلاحة، في كلام جاء بين يدي ترجمته لأعلام الجنوب في مزاب، بمعنى أنَّ ما سنجدُه من خِصال وسجايا لدى علَم ما إنما هو في -نظر الدبُّوز- أثرٌ من آثار الفلاحة، يُعلي مِن شأنها مُشِيدًا بفعلها الإيجابي "تلك هي الفلاحة في وادي مزاب، صعبةٌ مرهِقة، لكنها ذات شأن عظيم في كلِّ نواحي الإنسان، تُقوّي إرداتَه، وتُكوّن فيه الشجاعة والصبر والتضحيَة، وتعلِّمه التعاون والاتحاد، وتُورثُه بياضَ القلب، وسُهولة الطَّبع، وحُبَّ الخير، وغيرةً على الدين والوطن، وتقوي فيه الطبع الاجتماعي".[3] إنَّ الفلاحة بهذا المفهوم هي أكثر من مجرَّد سبب للقوت والمعاش، بل كانت وسيلةَ تربيَّة الأبناء عقلاً وجسمًا، وحاجزا منيعا من خِصال السوء التي تجعل الولد مُخنَّثا، جبانا كسولا، لا يعرف للرجولة معنى ولا لقوة

1) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 94/1.

2) المصدر نفسه؛ 94/1.

3) المصدر نفسه؛ 106/1.

الشخصية عنوانا، "وكان المثل السائر الذي تعيه كلُّ أمٍّ وكلُّ أبٍ وكلُّ أُسرة المثل الحكيم (من ليست له غابة يجيح أبناؤه)".[1] وبهذه المقولة فإنّي أتمثل الدور التربويّ للفلاحة والبستان مثل الدور الذي كان يُؤدِّيه رعيُ الغنم وبعض الحرف بالنسبة لبعض الأنبياء. لذلك وصف الدبوز ذهاب الأطفال إلى البستان كلَّ يومٍ للعمل واللعب "من الواجب الأكيد في ذلك العهد المبارك".[2]

ومن جملة أعمال الفلاحة أيضاً اعتبر الدبُّوز الحرثَ في البادية سببًا تربويًّا عظيمًا! والسرُّ يكمُن في كونه عمَلاً يتمُّ بشراكةٍ مع الأعراب، تُزرَع الأرضُ شعيرا وقمحا إذا سالت الأوديةُ المحيطة، أوَّل الخريف وفي الشتاء، "وفي البادية يزداد اختلاط الفلاحين بالأعراب فيأخذون فصاحتهم، والفلاح المزابي فصيح في اللغة العربية الدارجة، يتكلَّمُها بلهجة الأعراب الفصحاء..كذلك يمهرون في الفروسيَّة، وفي البادية صيدٌ كثير، الغزلانُ والأرانبُ وأنواع الطيور، الحجل والحمام وغيرها، فيصيدون بالبنادق ويتمتعون بلذة الصيد ومباهجه، ويزدادون تعلما للرماية".[3]

وبعد كلِّ هذه المقوِّمات كيف للدبُّوز -ونحن بالتبع- أن نفوِّت فرصةَ الأسف عن الماضي الذي ضاع معه كثيرٌ من مقوِّمات الرجولة؛ إنه لم يغفل عن إرسال جُرعات تربويَّة في كتاباتِه والمواقف التي يؤرخ لها، "هذه الزراعة المباركة التي صار كثير من شباب هذا الزمان يُفرِّطون فيها لجهلهم بمنافعها الأخلاقية والوطنية العظمى". وصدقا قال! فكم من شباب لنا اليوم يتقنون الفنون والمهارات التي ذكر؟ لقد خُوِّي جيل هذا الزمان مِن مُعظم مقوِّمات الرجل، أتصحُّ المقارنة بين شابٍ جلدٍ، قويِّ العزيمة، شجاع، خلوقٍ، فارسٍ، مُحسنٍ للرماية، مع شاب مُهلهل أفقده الفايسبوك وعديدُ الملهيات توازنَه ومسخه جنساً آخر.. رحمك الله يا دبوز.

ب- **التعاون والتكافل الاجتماعي:**

1) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 192/1

2) المصدر نفسه؛ 192/1

3) المصدر نفسه؛ 112/1-115

ومع ضياع مقوّمات الشخصية تفقد المجتمعات رأسُ مالها الاجتماعي، وإنما تفاوتُ الأُمم بالمبادئ والقيم؛ ومن جملة القيم نجد التعاون والتكافل ذلك الخلق النبيل الذي عرفتها المجتمعات العريقة مثلما هو عليه الأمر في مزاب، "إنَّ الفلاحة الصعبة في مزاب خلقت كلَّ الأخلاق العظيمة في الفلاح، وغرست فيه الخلق الاجتماعي، فكان محبًّا للتعاون، ذا نجدة وغيرة على الدين والوطن، يرأف على الضعيف، ويجود على المحتاج، ويسارع إلى إعانة غيره، يتعاونون في كلِّ أعمالهم الصعبة، في حفر الآبار، وغرس النخيل، وفي التأبير، والفرق والجذاذ،، ولولا التعاون الذي يغرسه الدين وهذه الصعوبة في الفلاحة المزابية، ما وقعت هذه العمارة، وما صار مزاب في وسط الصحراء القاحلة بحضارته ونضارته"[1]

ولم ينس التاريخُ أصالة العمل الجماعي في النفوس، فالحرث والزرع والحصاد كان جماعيا، وغرس النخيل ونقلها مسافات على الأكتاف بأعمدة كان جماعات بحسب حجم النخلة، وكان لهم قاموس خاص من المصطلحات التي تنظم تلك العملية باحترافية مطلقة فلا يقع الثقل على أحد؛ ولموسم الجذاذ نصيبه من العمل الجماعي، فرب نخل كثير يكون ملكا للمسجد حُبوسا، أو لعشيرة أو هيئة في البلد، كلُّ ذلك يتمُّ بالتعاون، ولولاه ما كان ليعمُر مزاب.

ولم تكن الفلاحة العامل الوحيد الذي يغرس روح التعاون والتكافل، بل كانت روح التربية والتعليم في مدارس مزاب تنفخُ في الطالب روحَ المسؤولية وحُبَّ خدمة الصالح العام، لقد كان شعار أغلب تلك المدارس "الخلق قبل العلم، ومصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد" شعارٌ طُبِع في النفوس طبعاً راسخا، هكذا كانت بيئةُ مِزاب وبيئة القرارة والمعهد ودار البعثة، "كلها تغرس في الطالب التضحية والاعتناء بالمصلحة العامة، إن مزاب هو وطن العمل لله. "ومِن الأعمال الجماعيَّة التي تعود بالخير الكثير على الطالب في جسمه وخلقه، وتُعوِّدُه خِدمة الجماعة، جلب الحطب لمطبخ البعثة.. كانت البعثة منذ نشأتها تستعمل الحطب للوقود، وهي تحتاج إلى كميات كبيرة منه كل يوم، فاتجهت البعثة إلى غابة القرارة، تستورد منه وقودا بدون ثمن"[2]

1) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 157/3.

2) المصدر نفسه؛ 106/1.

ت- **الجانب الوجداني والجمالي في الفلاحة:**

مِن اللاَّفِت حقًّا أن يكون للفلاحة أثرٌ حتى على الوِجدان! إنَّها في نظر مؤرِّخنا "تُربّي الوجدان القويَّ، بما يحُفُّ الفلاحَ في كلِّ أوقاته في كلِّ الفصول من جمال ساحر في بستانه وحقله، فينشأ قويَّ الوجدان، يحبُّ الجمالَ في كلِّ شيء، فيُغرَم به، ويُدرك الرذيلةَ وقُبحَها فيبغضها"[1] وقد وجدنا هذا الذوق الجماليَّ في شخصية الدبوز نفسه! فهو العلَم الذي درَج على ما درج عليه مشايخُه، وكانت الفلاحة محطةً من محطَّات حياته، وإن استرقنا السمع وخطفنا النظر إلى مؤرِّخنا وجدناه وقد حلَّق به الوجدانُ وذهبُ به الخيالُ كلَّ مذهب، ويبدو أنَّ الشوقَ جنح به إلى زوجِه، لغربةٍ التي كَوَته، فجعلته يفتحُ كُوَّةً إلى المشاعر الزوجيَّة المرهَفة، ويهيمُ في الحبِّ متخذا من الفلاَّح مطيَّة.. قال: "وربما كان في البستان الحصين يسقي نخلَه وأشجارَه في اللَّيل، فتتطلَّع إليه عروسُه مِن كوَّة السطح، فتراه وحيدا! فيستفزُّها جمالُ القمر ومُوسيقى البستان، فتُسرع إليه وفي أردانها البُخور المزابيُّ الذكيُّ، وفي شعرها العِطر الفوَّاح، وفي محيَّاها البِشر والحزم والمحبَّة فتساعد زوجها في السقي، ويجلسان على حافة الحياض ينتظران امتلاءها، وبينهما عناقيد العنب الحلو يتبادلان حبَّاتها بالشفاه لا بالأنامل! وخريرُ الماء البارد الحلوِ في الساقية والأحواض يستُر وسوسة القُبل ومناجاة الأحبة".[2]

وبعد هذا ليس غريبا أن يُقرِّر الدبُّوز أنَّ الجدَّ وصعوبةَ العمل في الفلاحةِ لم يُفقِد للفلاح ذوقَه الجماليِّ، بل الأمر على العكس تماما، فبالإصرار وتراكم التجربة في مغالبة الأرض، ازدهرت البستان وعمَّ الاخضرار، وتفنَّن المزابيُّ وارتقى إلى كمالات البستنة وما فيه الزينة، وغدا "بُستانُ المزابي يُغرس بذوق، ويُراعي فيه الجمالُ، إنَّه للنُّزهة وسُكنى العائلة في الصيف أيضا، فترى النخيل صفوفا، وبينها دروبٌ من الأشجار المثمرة: العنب والتين والخوخ والمشمش والرمان والليمون والبرتقال وغيرها. وتراهم يعتنون بزراعة الريحان والنعناع، ويغرسون الورد والياسمين في بساتينهم، إن البساتين لغللها الضرورية للمعاش، وللجمال والمتعة، وترى كل بستان مسور بأسوار عالية من شدة نضارته وارتوائه، وتُراك إذا

1) المصدر نفسه؛ 107/1.

2) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 108/1.

دخلت بساتين مزاب تنسى أنك في الصحراء القاحلة الجرداء".[1] وكان مما سجَّله المؤرّخ عن أبي اليقظان، أنَّ هذا الشيخ والبطل الهُمام كان مغرما بالبستانِ والاخضرار إلى حدٍّ لا يوصف، وحين يهمُّ بالكتابة والنظم أو القراءة العميقة "كان يسرع إلى البساتين في القرارة وإلى الحدائق العامة في أحراج (الحامة) في الجزائر كلّما همَّ بكتابة شيءٍ مهمٍّ أيَّام جهاده الصحفي الطويل، فيجد نشوة نفسه في تلك الأحراج" ومَن منّا لا يحفظ للشيخ أبي اليقظان نشيده الرائع "شريعة".[2]

لقد كان في الجوِّ الذي يحيا فيه الفلاَّح محضنا يفيض بالجمال الوجدان، وبعد ذلك لا يُستغربُ إن كان الفلاَّح ذا حسٍّ مرهف ومشاعر جياشة، إنَّ "في بساتين مزاب موسيقى فتانة تُطرِب كلَّ مَن يسمعها، ويتمتَّع بها الفلاح أكثر؛ أصوات البكرات التي تزجر الماء في كل بئر، وجرجرة الدلاء في الأحواض، وخرير المياه في السواقي، وأغاني الفلاحين التي تتعالى من كل بستان وتسمعها في كل ناحية، ورفيف النسيم في الجريد إذا راقصها، وحفيف الغصون في الشجر إذا عانقها، وهديل الحمام في الغصون، وصياح الأطفال في البساتين من شدة الطرب والنشاط.. هذه الأصوات كلها تمتزج فتتكون منها موسيقى فتانة تذكي النشاط في الإنسان".[3] ومن الذائقة الجمالية وقفةُ الدبُّوز مع وصفِ النَّخل في الربيع حين تبرز أكمام عراجِينها، "فما أجمل النخلةَ إذا عانقها الربيع فأنجبت عراجين في أكمامها الخضراء، ثم تنفضُّ عنها فتبدو صفراء غضة كبشرة الوليد الجميل، والفلاح يهدهدها بنشيد التأبير، وما أحلى نضارة البساتين".[4]

ومن زاوية التحقيق العلمي، من المهمّ أن ننبّه أنَّ مؤرّخنا الدبُّوز، وإن دقَّق الوصفَ في حديثه عن النخلة إلاَّ أنه لم يُعنَ بالقاموس اللغويّ الدقيق الذي تكلَّمت به العرب في تسمية ما ذكرَه؛ وفي بطون القوامس والمعاجم، بداية بالنخلة التي كانت محور الكتابة، فهي اسمٌ للشجرة الأنثى المنتِجة للتَّمر، أمَّا النَّخل المذكر الذي تُلقَّح به حوائل النخيل هو

1) المصدر نفسه؛ 108/1.

2) المصدر نفسه؛ 278/1-279.

3) الجاحظ: البيان والتبيين؛ 111/1.

4) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 110/1

الفُحَّال، واحدها فحَّالة. [1] "ولا يقال فُحَّال إلاَّ في النخل".[2] وما سماه "عراجين" هو في تحقيق أهلِ اللغة **طلعٌ**: وهو أوَّلُ ما يبرُز من الأكمام في الموسم. قال الخليل: "لكُلِّ شجرةٍ كِمٌّ وهو بُرعُومتُه؛ وقد كُمَّت النخلة كَمّاً وكُمُوماً، وقال الله جل وعزَّ: ﴿وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمام﴾.[3] وهو الغضيضُ أيضاً. وَقَالَ أَبُو زيد: يُقَال أطْلَعَ النخلُ الطَلْع إطْلاَعاً".[4] وبمرور الأيَّام ينمو الطلعُ ويعمُرُ، حتى ينشَقَّ كافُورُها، فَإذا تفلَّق أوَّلُ الطَّلع قيل: تبسّمَ وضَحِكَ؛ أمَّا قبل ذلك فهو **الوليع**، أي ما دام في قِيقَائِه كأنّه اللّؤلؤ في شدّة بياضه، قال الشاعر:

تَبَسَّمُ عن نيّر كالوليع يُشقِّقُ عنهُ الرّقاةُ الجُفوفا[5]

وإذا انشق **الكافور أو الكُفَّرى** (أخلاَّب)[6] انكشف عن **الإغريض**[7] بالنسبة للنخلة، وعن الحُراق والحِرق[8] (اَمَرْصِيد) بالنسبة للفُحَّال. ومن الجدير التنبيه إلى أنَّ أهلَ مكَّة يستخدمون كلمة "كافور" بينما يتحدَّث أهل البصرة عن "الطلع"؛ ومِن جملة ما حفظ

---

1) ابن السكيت: إصلاح المنطق؛ ص207.

2) الأزهري: تهذيب اللغة؛ 48/5.

3) الخليل: العين؛ 286/5.

4) الأزهري: تهذيب اللغة؛ 100/2.

5) الأزهري: تهذيب اللغة؛ 127/3.

6) الكُفرَّى/الكافور (أخلاَّب): بِضَمّ الْكَافِ وَفَتْحِ الْفَاءِ وَتَشْدِيدِ الرَّاءِ كِمُّ النَّخْلِ لِأَنَّهُ يَسْتُرُ مَا فِي جَوْفِهِ. والجمع: الكَو افير، يخرج من النخل كأنه نعلان مطبقان، والحمل بينهما منضود، والطرف محدد. وَفِي حَدِيثِ الْحَسَنِ «هُو الطِّبِّيع فِي كُفُرَّاه» الطَّبَّيعُ: لُبُّ الطَّلْع. وهو أيضا الشِّرْعَافُ: والشُّرْعَاف، بِكَسْرِ الشِّينِ وَضَمِّهَا: كافُور طَلْعَةِ الفُحَّال. قال الزبيدي: أَي قِشْرَ طَلْعَةِ الفُحَّالِ من النَّخْلِ، لُغَة أَزْدِيَّةٌ. وقال الخليل: القِيقاءةُ: قشر الطلع. ينظر. الخليل: العين؛ 358/5- 237. المطرزي: المغرب في ترتيب المعرب؛ ص411. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر؛ 189/4. ابن منظور: لسان العرب؛ 185/9.

7) الإغريض: الطَّلْعُ حِين ينشقُّ عَنهُ كافورُه. وقال البَحْرانَي: الإغرِيضُ: الطَّلعةُ الصغيرة. ينظر. الأزهري: تهذيب اللغة؛ 50/8. الشيباني: الجيم 8/3.

8) الحِرْقُ: والحَروقُ، والحُروق، والحِراقُ والحُراقُ: الكُشّ الَّذِي يُلْقَح بِهِ. أعني بالكُشّ الشِّمْرَاخَ الَّذِي يُؤْخَذ من الْفَحْل فَيُدَسُّ فِي الطَّلْعَة. ينظر. الأزهري: تهذيب اللغة؛ 30/4. ابن سيّده: المحكم والمحيط الأعظم؛ 575/2.

الجاحظُ من مناظرة محمد بن المناذر شاعر البصرة مع أهل مكَّة في كونِ لغة البصريين أفصحُ من قريش وأقربُ إلى القرآن قولُه: "وأنتم تُسمُّون الطلع الكافور والإغريض ونحن نسميه الطلع. قال الله تبارك وتعالى: وَنَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ"[1] .

5. تعلُّم تسلُّقِ النخيل من أبجديات التربية في مزاب:

حسبُنا من المثل السائر في مزاب ترديدُ الأوائل (مَن ليست له غابة يجيح أبناؤه)"؛[2] ويكفي النخلة شرفًا أن تكون عروسَ البساتين، تحوزُ السبقَ في العناية والاهتمام؛ لقد "كانت النخلة هي الشجرة الغنية التي آثرها مزابُ وعوَّلوا عليها في العدش لخصائصها الكثيرة، وفضَّلها على كل الأشجار... وعكَف المزابيون على غراسة النخيل فغرسوا منها مئات الآلاف من الأشجار في وطنهم، وهي من ذوات التمر الجيد في ألوانه ومذاقه ونُكهته وقوته الغذائية".[3] ولِيَتغلْغَل حبُّ النَّخيل في نفوس الأبناء كان الناس يصطحبون أسرَهم في الجُمع والأعياد إلى بساتينهم، إمَّا للعمل أو النزهة العائلية؛ ويُرافق اجتماع الأسرة، أُنسٌ وتعاون على الأعمال الحقليَّة، مع ما يصحبُه من نقل للخبرات والجرعات التربويَّة.

لقد "كان الآباء يُعلِّمون أبناءهم الصغار تسلُّق النخيل، قد يسقط منها فينكسر ويشرف على الموت، وإذا شُفي أسرع إلى النخلة يستأنف تعلُّم تسلُّقها، تدعوه إلى ذلك أمُّه وأبوه".

وينشأُ ناشئُ الفتيانِ منَّا على ما كان عَوَّدَهُ أبوهُ[4]

إنَّه نمط من الحياة صعبٌ وقاسٍ، لكنَّه كان أجدى في التربية وصناعة الفحول من الرجال، وهو المحكُّ الذي مرَّ عليه أغلبُ زعماء الإصلاح في الجنوب، وهذا الشيخ بيوض يحكي حكايتَه مع النخلة فيقول: "وقد انزلقت رجلايَ ذات مرَّة في خشبة النَّخلة، فتزحلقتُ منها إلى حوضها، فارتطمت رجلايَ بالأرض، ودُمِيتُ ودُمِيتْ ذِراعاي وصَدري، فثار عليَّ

1) الجاحظ: البيان والتبيين؛ 40/1.

2) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 192/1

3) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 99/1.

4) الهاشمي، أحمد: السحر الحلال في الأمثال والحكم؛ 112/1. ولم تذكر مصادر الأدب قائلَه.

والدي، فأمرني بمعاودة التسلُّق، فرجعت إلى نخلتي أستقلُّها وقد نسيت أتعابي ودمائي وأوجاعي"[1]

كما يروي الشيخ أبو اليقظان كيف أنَّ جدَّته لأمِّه (بيَّة بنت باعلي بكّوش) علَّمته العمل في البستان والغرام بالأجنَّة، وكانت تصطحبه معها إلى البستان منذ الطفولة الأولى، فيعمل معها كلَّ ما يستطيع، ولما بلغ السابعة كانت تأمره بتسلق النخيل المتوسطة في الطول، فيجني تمرها، ويؤبِّرها، ويفرقها، ويحتطب منها، فبرع في تسُّق النخيل، وما كاد يصل العاشرة من عمره حتى كانت النخيل الطويلة لا تعجزه".[2]

هذه الجدَّة هي أصلا كانت تقوم بما لا يقدم عليه بعض الرجال، كانت تقوم بكل أعمال الفلاحة الصعبة "تتحزَّم فوق جلبابها الساتر، فتتسَّق النخلة لجني التمر والاحتطاب، وتحمل على ظهرها قربة الماء من المدينة إلى دارهم في المدينة، وكانت تكسر أحواض البستان بالفأس، وتزجر الماء بالدلو الكبير على ظهرها".[3]

لكن، ما بالُ مَن فاته تعلُّمها لسبب أو آخر؟! يجيب الدَّبُّوز بأنَّ المزابيين كانوا "يرون الرجلَ الذي لا يُحسِن تسلُّق النخلة السحوق عاجزا ضعيفا، لا شرفَ له! فيحتقرونه ولا يبالون به، لأن تسلق النخلة تربية لا بدّ منها، فلذلك ألزموها كلَّ رجل ليكون شجاعا مغامرا قوي الخلق والجسم".[4] إنها عبارات تنطوي على مقوِّمات الرجولة قديما، وتعكس ذهنية ذلك الزمان في اعتبار الرجولة، فالعبرة في مكانة الرجل بما يحسن ويجيدُ، وقد شاع في الأمثال السائرة العاميَّة "اللي ما يذبح شاتو، وما يطلعْ نخلتو، مُوتُو خير من حياتو"، إذ لا يتصور رجلٌ له نخل يستعين بغيره ليطلب له تمرا أو أيَّ خدمة تتطلبها النخلة مما ذكرنا آنفا.

1) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 221/1

2) المصدر نفسه؛ 275/1.

3) المصدر نفسه؛ 257/1.

4) المصدر نفسه؛ 100/1.

هنا نجد الدبُّوز يتندّر لحال شبابِ زمانه هو، أمَّا شباب زماننا نحنُ فالخطب أعظم والداهية أفدح، وعن البحر حدِّث ولا حرج![1] يتأسَّف المؤرّخ لشباب رضُوا بحياةٍ مترفة غلب عليها اللهو واللعب، وهجروا ما به قِوام الحياة والأخلاق، يتندَّر وهو المخضرم الذي محَّصته حياةُ الرجال والرجولةُ في عليائها، وعاين الخوَر في شباب زمانه حين تنكَّر كثير من الآباء لمنهج تربية الآباء، وأتمثَّله حريصا على حمل جيل الشباب على سيرة الأوائل، "ليت شعري نرجع إلى رياضة أبنائِنا في الحقول في وقت فراغهم من الدراسة والعمل، حيث يجدون وسائلَ مُجدِية تروض أجسامهم وتبني فيهم الخلق العظيم" ثم هو يبرز جوانب مما تتركه النخلة من أثر طيب في النفس والجسم "إنَّ تسلق نخلة واحدة ومصاحبة الفأس الذي يحرِّك كلَّ العضلات ساعة واحدة، أجدى على النشء من هذه الكرة التي يجري وراءها في الملاعب وتعلمه أن ينظر دائما إلى الأرض فينشأ خافض الرأس، أما النخلة المباركة وتربية الحقل العظيمة فتجعله شجاعا بطلا قويا رافع الرأس، لأن النخلة تعوِّده أن ينظر دائما إلى السماء وتجعله في الأعلى".[2] إن ما يشتكي منه الدبوز هو عين ما يشتكي منه الآباء في كل البلاد التي غيَّرت الحضارة طبعها.

وللدبُّوز وَقفةٌ مع تسلُّق النخلة، جاءت في وصفٍ بالغ الدقة، ينمُّ عن معرفة ودربةٍ بذلك، إنَّه لا يعرف صعوبة الأمرِ إلاَّ مَن كابده، فرُبَّ متسلِّق نخلةٍ "قد تكون سحوقا طولها عشرون مترا وأكثر، وهي بدون كَرَب في ساقها يتمسَّك به، يصلُ جريدَها المتشابك الملتف فيدخل بينه، لا يخاف السلى [السُّلاَّء][3] الشديد الذي يعترضه ويحوط به من كلّ جانب، ولا السقوط في الطلوع والنزول، وقد تكون العاصفة الشديدة فتترنَّحُ النخلة وهو يتسلَّقها، أو ينزل منها وتميل ميلا عظيما، وهو ماضٍ في عمله لا يخاف ولا يحجم، بل ويجد النشوة في

1) اليوسي: زهر الأكم في الأمثال والحكم؛ 103/2.

2) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 100/1.

3) السُّلاَّء: بالضم، مِثالُ القُرَّاءِ: شَوْكُ النخل، الواحدة سُلاَّءَةٌ. قال: تقول: سَلأْتُ النخلَ والعَسيبَ سَلاً، إذا نَزَعْتَ شوكها. قال الأزهري: تَشْنِيخُ النَّخْلِ تَنْقِيحُه مِنَ السُّلَّاء. ينظر: الجوهري: الصحاح: 55/1. الأزهري: تهذيب اللغة: 107/4.

رأس نخلته وهو يؤبرها فيصدح بنشيد التأبير، وبأغانيه الأخرى في أعماله الأخرى الشاقة".[1] وقد سجَّلنا على هذه الوقفة قراءةً وملاحظات، منها:

أ- إنَّ التمرُّن على تسلُّق النخلة واكتساب المهارة والثقة بالنفس أساسُه الدُّربة منذ الصغر، وللوالدين الدور الأكبر كما بيَّن الدبُّور، وتتنامى الخبرة بأنواع النَّخيل وكيفيَّات تسلُّقها، فهي ليست سواء في نوعيَّة الجذع، فقد تكونُ ذاتَ كَرَب، فالخطَرُ المحدِق بالمتسلِّق غيرِ الحاذق حينَ يكونُ هشًّا ينخلع من أصوله بسهولة، أمَّا إن كانت النخلة غيرَ ذاتِ **كرَب** فثمَّة يعظُم الكرْب! [2] ويصعب التسلُّق، وبخاصة إن كانت عريضة سحوقا مثل الفُحَّال عادةً (ذكر النخل، أمرْصيد)، وشتان بين القصيرة والسحوق، وبين عريضة الجذع والرقيقة التي يسهلك التمسُّك بها.

ب- إذا وصل متسلِّق النخلة إلى أعلاها يكون قد اجتاز مرحلة مُهمَّةً، لتستَقبلَه مرحلةٌ أصعبَ وأخطر، إنها الدخول إلى قلب النخلة، وتنطوي مخاطرُها في الاغترار بالتمسك بجريد يابس سهلِ الاقتلاع، والأمان كلُّ الأمان في التمسُّك بالجريد الأخضر، ومما شاع في الأمثلة المزابية (اَفْلانْ يطَّف تِيرَضْوِين "أصول الجريد الثابت")، وهو مثال يُطلق على مَن تمسَّك بالثابت الصحيح وترك الهشَّ الضعيف؛ ومن أوجه الخطر المحدقة بالمتسلِّقِ أن تتعرَّق يداه بسبب الجزع والخوف، أكثر ممَّا يُسبِّبه التعب، فثمة خطر انفكاك اليد عن الجريد؛ كما أنَّ عدمَ اختيارِ غيرِ الماهر لأحسنَ مدخل إلى قلب النخلة -وهو الفراغ الذي يكون بين الجريد- يجعل الدخول صعباً للغاية، فقد يحاول عبثا الولوج إلى قلب النخلة من الجهة المائلة أو الناحية التي يكون فيها الجريد أكثر تشابكاً، ويبقى الصبر على وخز السُّلاَّء العائق الأخير الذي وجَب تجاوُزُه.. فإن تخطَّى المتسلِّقُ كلُّ ذلك استوى في قلب النخلة، وتنفَّس السعداء وشعر بالأمان، ليبدأ المهمة التي من أجلها تسلَّق.

---

1) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 99/1.

2) الكَرَب: أصُول السَعَف الغِلاَظُ العِرَاض الَّتِي تَيْبَسُ فَتَصِير مثل الكَتِف، واحدتها: كَرَبة. والكَرَابة، والكُرَابة: التَّمْرة الَّتِي تُلْتَقَطُ من أصول الكَرَب بعد الجِدَاد. قال الْأَصْمَعِي: أصُول السَّعَفِ الغِلاَظُ هِيَ الكرَانيف، واحدُها: كِرْنافة، والعريضة الَّتِي تيبسُ فتصيرُ مثل الكتِف هِيَ الكَرَبة. ينظر: الأزهري: تهذيب اللغة؛ 09/7- 117/10.

وفي الصحاح: "الكرناف: أصولُ الكرب التي تبقى في جِذع النخلة بعد قطْع السَعَفِ، وما قُطع مع السَعَفِ فهو الكَرَبُ، الواحدة كِرْنافَةٌ. وجمع الكرناف كرانيف. الجوهري: الصحاح؛ 1420/4.

ت- تتفاقم المخاطر أكثر إن كان ثمَّة رياح تهزُّ جذع النخلة، وكلَّما كانت النخلة سحوقا كان فعل الرياح فيها أشدُّ وأخطر، فقد تُفقِد المتسلِّقَ توازُنَه، وبخاصة في لحظات الدخول إلى قلب النخلة أو النزول منها، والأمر عندي أشبه بلحظات إقلاع الطائرة أو هبوطها.

ث- واضح أنه ثمة قاموسٌ من الأغاني التراثية والأقوال المسجوعة التي تُردَّد، قد كانت النخلة في مزاب مدلَّلة للغاية، قيلت في أشعارٌ وحيكت فيها أمثلة كثيرة، هذا وتتنوَّع الأهازيج بحسب نوع الخدمة مع النخلة، فإن كان تأبيرا، فإنَّ ما شاع على ألسنة الفلاحين، هو الصلاة على النبي المصطفى في صوت ملحَّن جميل، وقد يُشفَّعُ ذلك بدعاء لصلاح التمر حتى لا يكون شيصًا، "يا ربِّ عمَّرها، وثمَّرها، وبارك في عَمْرَها"، ولا تشيِّصُ النَّخلةُ إلا إذا لم تلقَّح أو لسوءِ تأبيرها.[1] وحين يزهو موسم التأبير في الربيع ترتفع الحناجر من أعلى النخلات ويتبادل الفلاحون التحايا، في سمفونية جميلة لا يحسُّ بعبقها إلاَّ مَن عاش ذلك الزمن الجميل، وإن كان قطعاً، فيحكم العمل نظامٌ ومقولاتٌ، عند إلقاء العرجون (آهوليك)، وعند الانتهاء من القطع الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وسلَّم، دون أن ننسى أنَّ أيَّ صعود إلى النخلة يستدعي نداءً خاصا لتنبيه الحريم في الجيران.

6. أعمالٌ في خدمة النخلة:

لن تكبرَ النخلةُ ولن تُثمِر دون أن تجدَ نصيبَها من الرعاية اللازمة، فالأعمال التي تحتاجها النخلة لتزهُوَ كثيرة، يتعرَّض لها الدبُّوز على تفاوتٍ؛ يصفُ الفلاَّحَ المزابيَّ بأنَّه دائمُ التسلق للنخلة "في الربيع للتأبير، يتسلَّق كلَّ نخلة مِرارا ليؤبِّر عراجينها، ويتسلَّقها أوّل الصيف للفرق، يُنقِصُ من غَلَّتِها إذا كان الزائد، ويُنزِل العراجين الباقيةَ وينضِّدها ويضعُها على الجريد الأخضر، كي لا تثقل وتتكسَّر، وحتى يسهل جنيُها، وتكون جميلة، مريحة للنخلة، لا تميل كلُّها إلى ناحية واحدة فتضرُّها؛ عمليَّة صعبة يتعرَض فيها للسُّلى الذي يوخز أطراف جسمه فتسيل منه دماؤه، وللسقوط.. ويتسلق في الخريف كلَّ يوم لجني

1) ينظر. ابن منظور: لسان العرب، 51/7. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة؛ 1255/2.

التمر، ويتسلقها للجذاذة.. ويتسلَّقها في الشتاء للاحتطاب، ينزع جريدَها وكرَبَها ولَيفَها اليابس للطبخ والاصطلاء"[1] ودون الفقرة لا بدَّ من تعليقات، منها:

أ- يُصوِّر لنا الدبُّوز عمليَّة **الفرق** أدقَّ تصوير، جامعٍ بين الفوائد الفنيَّة والجماليَّة؛ فإنقاص الزائد مِن الغلَّةِ والتمرُ ما زالَ بلحًا أخضرَ، من شأنه تخفيفُ ثِقل العِذاق عن النخلة الضعيفة، وبخاصة إن كانت بوراً، حتى تؤتِي أُكلها كلَّ عام بإذن ربّها، كما يعود إنقاصُ بعضِ الشماريخ من لُبِّ العِذق بالفائدة على التمر نفسِه ليكون أكبر حجما، وهو أدعى إلى تهوية العذق فلا يتلَف تمرُه بالمطر ونحوِه.

ب- يُعدُّ إنزال العِذق المشتَبِك في أصول الجريد أساسُ عمليَّة الفرق، ولو بقيت الأعذاق على حالتها قبل الفرق فإنَّ تمرا كثيرا سيضيع في موسم الجُذاذ، ويتساقطُ في قلب النخلة؛ وبحسب النخلة تكون عمليَّة الفرق، فأغلبها يكون بوضع العذوق فوق الجريد الأخضر لتتحمل ثقله المتزايد وإلاَّ انكسَر العُرجون! وفي ذلك خسارة للفلاَّح؛ أمَّا إذا تمَّت عمليَّة الفَرق باحترافيَّة ووُضعت العُذوق منضَّدة، وفي شكلٍ حلّقي أعطى ذلك للنخلة منظرا جميلاً، وسهُل جنيُ بُسرِها؛ ومن النخيل ما يكون عراجينها ليّنا مطاوعاً لا ينكسر، هنالك تكون أعذاقُها متدليَّة مثل نخلة (الدقلة تنور)، وهو منظر يُبهج النفس ويُريح الفلاح المترقِّب لموسم الجني؛ وفي الحديث «كَمْ مِنْ عِذْقٍ مُدَلًّى لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ».[2]

ت- يجدر التنبيه أنَّ العَذْقَ بِالْفَتْح: كلُّ غصن له شُعَب؛ والعَذقُ أيضًا النّخْلَة بحَمْلِها عِنْد أهلِ الحِجازِ، ومنه الحديث "لَا والَّذِي أَخْرَجَ العِذْقَ من الجَرِيمَة، والنارَ من الوَثِيمَة"؛ أَي: أَخْرَجَ النَّخْلَة من النَّواةِ، والنارِ من الحِجارَةِ المَكْسُورَة. ومنه أيضاً حديثُ أَنَسٍ: فردَّ رسولُ اللهِ صلّى الله عَلَيْهِ وَسلم إلى أمّي عِذاقَها أَي: نخَلاتِها. أما العِذْقُ، بالكَسْر: الكِباسَة وَهِي القِنْو مِنْهَا وَهِي العُرْجون بِمَا فِيهِ من الشّماريخ. وَمِنْه الحَديث: كمْ من عِذْقٍ معلَّق لأبي الدّحْداحِ فِي الجنّةِ".[3]

---

1) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 1/99-100.

2) أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد، حديث رقم 20834؛ 34/424.

3) يُنظَر. ابن منظور: لسان العرب؛ 4/2861. الزبيدي: تاج العروس؛ 1/99-100. ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر؛ 3/199.

ث- ترتاحُ النخلة كثيرا بعمليَّة الفرق، وتسمَّى أيضا "التعديل" في بعض المناطق من الوطن، فهي تحدِثُ توازنا في الغلَّة، فلو كانت النخلة مائلةً حُوِّل معظم الأعذاق إلى الجهة الأخرى على النحو الذي يحفظها من الانكسار، بل ويصون النخلة نفسها من السقوط إذا اشتدَّت عليها الرياح الموسميَّة.

ج- وبالمحصِّلة، فإنَّا نُسجِّل للدبوز تدقيقا في الوصف حين يتعلَّق الأمر بالحِرف والصناعات، وهو تدقيقٌ ينمُّ عن خبرة وتتبّع لفنيَّات الحرفة ومهارات الصنعة، وصفا لا يجيده إلا العارف بها، ويغفل عنه السطحي غير الممارس، وما كان شاعريَّةً وإطناباً وإيغالاً في إيراد المرادفات اللغوية، كما قد يُتوَّهم!.

ح- بخصوص تسلُّق شتاءً للاحتطاب لم تكن شائعة بنفس الحجم الذي هو للتأبير أو الفرق، بل إن العمليَّة كانت تتم في موسم الجُذاذ، ولا يُعمد إلى النخلة في الشتاء وهو الموسم الذي ترتاح فيه النخلة، وجذعُها يكون رطبا زلقا بفعل الندى أو المطر، وذلك ينطوي ذلك على مخاطر.

7. قطع النخيل للوقود:

من الأعمال التي توقَّف عندها الدبُّوز ووصفها وصفا دقيقا قطع النخيل للوقود، باعتبارها طالبا يسكن دار البِعثة، وهو المقر الذي يأوي الطلبة الوافدين من خارج القرارة، يصف العمليَّة وكأنه يعيشها، يسترجع أيَّاما خوالي كانا فيها حطّابا للبعثة مع زملائه الطلبة، ويضبط عقارب الساعة عائدا بالزمن إلى الوراء ليتذكر ذلك العمل المهيب، "إنَّ الاحتطاب يقع يوم الخميس، وهو أوَّل يومِ العطلة الأسبوعية في المعهد والمدرسة الابتدائية، وفي ذلك اليوم يبكّر الطلبةُ في النهوض، وبعد الفطور يسرِعون جماعاتٍ إلى بساتين القرارة، وعلى كلِّ جماعة رئيس من الطلبة، فيقصدون النخيل التي أعطيت لهم، وعلى عواتقهم الفؤوس، ومعها عربة يجرها حمارُهم، فيكشفون بالفؤوس عن عروق النخل، وهذا عمل يستلزم جهدا، لأنهم قد يحفرون أمتارا كثيرة في أرض قد تكون يابسة، ويصعد أحدُهم إلى رأس النخلة فيربط عنقها بحبل طويل فينزل، فتجذب جماعة الطلبة كلُّها الحبلَ في قوَّة فتميل النخلة حتى تُسقِطها، فينزعون منها جريدها بالفؤوس".[1]

1) دبوز، محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر؛ 158/3.

أمَّا عن مرحلةِ قَطع الجذع ونقله إلى دار البعثة فيقول: "ثم تبدأ العمليَّة الشاقة في النَّخلة وهي تقطيعُها قِطَعا يمكن رفعُها للعربة، إنَّ الخشبة الخضراء المبتلَّة يصعُب قطعُها، ولكنَّ إرادةَ الشباب تفلق الحديد، فينهال الطلبةُ بالفؤوس على النخلة، وهم جماعات، كلُّ جماعة معها فأس يتناوبون على العمل، فتسمع من بعيد دويَّ الفؤوس في النخل الطويلة المطروحة، ومع دويِّ الفؤوس ضحِك الطلبة وأصواتُهم التي تفيض بالمرح والنشاط، وقد يهزجون بأناشيدهم المطربة".[1]

وعلى النحو الذي سبق، حين يتعلَّق الأمر بتقنيات عمليَّة في خدمة النخلة، فإنا نوُّد أن نعلِّق على بعض الملاحظ الدقيقة التي وقف عندها المؤرخ من باب الإثراء والتعقيب، ومن ذلك:

أ- بداية نسجِّل أنَّ العمل لم يكن عشوائيا غيرَ منظَّم، بل لا بدَّ فيه من قائد مشرِف وموجِّه للعمليَّة، يكون ذا خبرة، وعادة ما يكون مِن قدماء الطلبة؛ وهكذا شأنُ الأعمال الجماعيَّة في البعثة مثل المهمَّات العسكريَّة، لا بدَّ فيها من قائد آمرٍ وناهٍ، ويتجاوب ذلك مع ما ثبت في وحي السنة، وصدق الشاعر الجاهلي الأفوه الأودي (ت.570م) حين قال:

لا يصلحُ القومُ فوضى لا سراةَ لهمْ ولا سَرَاةَ إذا جُهالُهم سَادُوا[2]

ب- مِن الملاحَظ استغلال أيَّام العطل فيما يخدم الفرد والجماعة، ونقرأ تنظيما دقيقا محكما للأوقات، لا مجال للفراغ وتضييع الأوقات.

ت- صحيحٌ أنَّ مرحلة قطع الجذع مرحلة شاقة تتطلب أداة حادَّةً، وهي فعلا مجهِدة، تحتاج إلى تناوب وتكامل حتى يستمر العمل؛ على أن قساوة جذع النخلة الخضراء، متفاوت بحسب نوع النخلة، وإن بعضها يرتدُّ منها الفأس لصلابته، ويُتخَذ منه أعمدة السقف، وبعضُها الآخر هشٌّ ليس بالقساوة الكبيرة؛ كذلك كلَّما كنتَ أقربَ إلى رأس النخلة موضعِ الجريد كان الجذع أليَنَ، وكلَّما نزلتَ صوب الأصل حيث الجذورُ تزدادُ الصلابة، بسبب أنَّ القشرة والشعيرات التي تملأ جوف الجذع أكثر كثافة وتماسكا، وذلك معقول جدا لأنَّ الضغط عليها أقوى؛ وثمّة جانب آخرَ من الصعوبة يكمُن في ثقل أجزاء

1) المصدر نفسه؛ 158/3.

2) ابن قتيبة، الدينوري: الشعر والشعراء؛ 217/1.

الجذع لاحتوائه على نسبة معتبرة من الماء، لذلك فإن القِطَع المجزَّأة وجب أن تكون بحجم معقول، فالكبيرة منها مع الرطوبة لتنوء بالعصبة أولي القوة من الطلبة.

ث- وتشدُّني الأهازيج التي تُخفِّف من وطأة العمل المجهِد، وتُنسِي الشوقَ إلى الأهل، بل وتملأ الجوَّ نشاطا وحيويَّة؛ إنَّ لضربات القَادوم المتلاحقة والمتقاطعة من عدّة فرق وقعًا خاصًّا، وترتفع تلك السيمفونيَّة لتقطع سكون الغابة، وأغلبُ أعمال الفلاحة الجماعية تعرف أهازيج منشِّطة، وربما في وسط المجموعة مكلَّف لذلك تخصيصاً، مهمَّته الأساسيَّة تنشيط الأجواء وتفعيل المجموعة، حتى لا يتسلَّل المَلَلُ إليهم؛ وفي المثل العامي اشتهرت المقولة "ندّاه خير من خدّام".

ج- سَمَّى الدبُّوز آلة القطع في كامل المقطع الذي أورده "فأس/فؤوس" لكن للفأس استعمالات أخرى غير قطع جذع النخلة، وهو تقليب الأرض وتسوية الأحواض؛ وأنسب آلة لقطع جذوع النخل هي القَدُوم أو القَادُوم،[1] وهي آلةٌ أحدُ طرفَيْها مِعولٌ وطرفُها الآخر فأس.[2]

ح- العملُ على مستوى الجذور من أصعب المراحل التي تستنزف القوة، وتبلُغ بالجهدِ مبلغَه، والتجربةُ تقرِّرُ أنَّ الصعوبة لا تكمن في كون الأرض يابسةً، فذاك سببٌ مرهق فعلاً، لكنَّ الذي يجعل العمل صعبا للغاية وشاقًّا هو شبكة العروق الغزيرة التي تُثبِّت النخلة، وليس من السهل قطعُ جذور تلك الشبكة أو اختراقُها، إنها معركة بين إرادة النخلة للبقاء على قيدِ الحياة وحاجة الإنسان للاحتطاب فيما سخّر الله له من نعم؛ وللأمانة فإن قطع النخلة لم يكن يُتساهل في أمره في مزاب، ومما حُفظ عن الآباء أنَّ النخلة لو كانت قدر حفنة من التمر أو قدر ما يملأ طاقية (اَتْشَاشيتْ) فلا يُسمحُ بقلعها؛ وعليه لا بدَّ من مبرِّر مقنعٍ وكافٍ حتى يُسمحَ باستئصال النخلة، كأن تكون سحوقا تشكل تهديدا على عاملها أو ما حولها، أو يصيبُها مرض مُعدٍ من أمراض النخيل، أو تُوشك على السقوط بسبب عاصفة أثَّرت فيها..)، ومن الصعوبة أن ينغرز القَدُوم في العروق ويعلق فيها، ما

---

1) رينهارت بيترآن دوزي: تكملة المعاجم العربية، 201/8.

2) واعتبر الصفدي في "تصحيح التصحيف وتحرير التحريف أنَّ "قادوم، وفي الجمع قَوادِم خطأ، والصواب: قَدُوم، والجمع قُدُم. لكن مجمع اللغة المصري أقرَّه، واعتبر صيغة «فاعول» قياسيّة اسمًا للآلة؛ لأن ما ورد منها عدد غير قليل، كساطور وطاحونة وغيرهما. ينظر: معجم الصواب اللغوي؛ 969/2.

يجعل قوى العامل تُستنزفُ وتخور، ولو كان جَلْدا قويا؛ لذلك تتطلب العمليَّة خبرة ومهارة بكيفيَّة القطع، ضرباتٌ بالقاطع في الجذور من الأعلى ومن الأسفل لتقطيع أوصالها، ثم استخراج العروق المقطوعة بالجهة الأخرى للقادوم، ونفس التقنية بالنسبة لقطع جذع النخلة في الأرض.

خ- الحفرُ في الجذور يبدأُ بحفرةٍ واسعة حول أسفل الجذع حيث تنغرز شبكةُ الجذور التي هي دعامةُ النخلة، ثم يكون التوغُّل مع الجذور تدريجيا أسفل النخلة حتى تتقطَّع جميع الجذور المثبِّتة للنخلة؛ بذلك يسهل طرح النخلة السحوق أرضا، هذا إذا لم كانت النخلة وسط البستان، أما إن كانت وسط بُنيان أو يحيط بها ما يمكن أن تضرَّه بسقوطها، كنخل صغير أو شجر مثمر، فالعمل يكون بقطع النخلة مجزَّأة قطعة بعد أخرى ابتداءً من الرأس، وتلك تقنية ومهارة أخرى لها أسرارها ومخاطرها.

د- ربطُ عُنق النخلة يكون في بداية العمل قبل بداية الحفر، وليس في قواعد السلامة تركُ ذلك إلى الأخير كما وصف الدبوز؛ كذلك من الضروريّ التنبيه إلى جزئيَّة تقنيَّة أوردها المؤرّخ، وهي أنَّ قطع الجريد يكون بعد إسقاط النخلة، بل الخبرة الصحيحة تثبت أن يُسبَق ربطُ عنق النخلة بقطع ما فيها من جريد يابس وأخضر، وأهميَّة ذلك يكمن في التحكُّم في توجيه النخلة حين جذبها، وإن لم يُفعل بها ذلك فليس من السهل التحكم في إسقاط النخلة في الموضع المراد، وبخاصة إن شهِد الجوُّ شيئا من الرياح ولو يسيرا، وحينها فإن النخلة إن قطعت جذورها تكون خارج السيطرة. ويندر وربما يستحيل أن تقطع نخلة فيها غلّة تمر، اللهم إلا إن كان قطعا لضرورة قصوى كتهديد بالسقوط المحقَّق.

ذ- بخصوص السحب بقوة لا بدَّ أن يكون ذلك جماعةً، لأنَّ النخلة الباسقة التي عمّرت لعشرات السنين تأبى السقوط، والقرارُ بالتوقف عن قطع الجذع والشروعِ في السحب قرارٌ دقيق مدروس، يُظهِر مهارة قائد المجموعة وخبرتَه بالعمليَّة، فلربَّما أجهدوا أنفسهم بالسحب قبل أوان ذلك، وربما يبالغون في القطع فتقسط النخلة دون سحب، فتسقط حيث هي تشاء! وقد ينجم عن ذلك أضرارٌ بالغة، والخطر حين تسقط إلى الجهة التي يكون فيها الطلبة العاملون، لذلك فعملية القطع مدروسة مدة وموضعا.

- خاتمة:

تفيدُنا القراءةُ الفاحصةُ لما كتبه الدبُّوز في موضوع الفلاحة والنخيل أنَّه كان ذا غيرة شديدة بالنخلة والفلاحة عمومًا، يعكِس ذلك اللغة التي كتَب بها، وتدقيقِ الوصف الذي

فصَّل فيه الجانب الفنّي أو الجماليَّ الذي حازته الفلاحة والنخيل، مع ملاحظة أنَّ الدبُّوز لم يُدقِّق في القاموس اللغويّ حين تعرُّضه للأجزاء الدقيقة المكوّنة للنخلة، ولا الأدوات التي كانت تستعمل، ومن الوفاء أيضا أن نذكِّر أنَّ التفصيل الذي اعتمدَه في تعرُّضِه للجانب التقنيّ كان وصفا دقيقا يصف المرحلة بتناوٍ بالغٍ، ينمُّ عن تجربة وخِبرة بالموضوع، وما كان مجرَّد إسهاب وتنميقا للعبارة؛ كما لا يفوتُنا أنَّ نُنوّه بقناعة الدبُّوز الراسخة أنَّ النخلة محضنٌ تربوي هام، فيه تكوَّن العظماء وتخرَّج النبهاء من الأعلام، وإن كان من توصيةٍ لمؤرخنا في الموضوع فهي دعوتُه لاقتفاء سيرة الأجداد مع الفلاحة والنخيل، إن نحن فعلاً أردنا تخريج جيلٍ يتابع مسيرة الأجداد بالهمَّة والصفاء التي كانوا عليها.

ولا يفُوتني في الختام أن أُذكِّر أنَّ منطلَقَ الكتابة في الموضوع كان بالأساس ذاتيًّا، فبَيني وبين النَّخلة علاقةٌ عريقة، تذكِّرني بالوالد عليه سحائب الرحمة والرضوان، ذاك الشهمُ العظيم الذي سار على درب الأجداد والعظماء في الاهتمام بالفلاحة والنخيل، وإني مُهدٍ له هذه القراءة، مترحِّمٌ عليه، وعلى شهداء النخلة الذين ماتوا وهم يخدمونها، ولو قُمنا بإحصائهم لعجزنا، وهم من مختلف الأعمار والمهام. والحمد لله أولا وآخراً...

- **المصادروالمرجع:**

1. الدبوز، محمد علي: **أعلام الإصلاح في الجزائر**، الجزائر، عالم المعرفة، ط1، 2013.
2. الدبوز، محمد علي: **نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة**، الجزائر، عالم المعرفة، ط1، 2013.
3. الدبوز محمد علي: **تاريخ المغرب الكبير**، الجزائر، عالم المعرفة، ط1، 2013.
4. إبراهيم بحاز وآخرون: **معجم أعلام الإباضية**، قسم المغرب، نشر جمعية التراث، القرارة، الجزائر.
5. ابن الأثير، مجد الدين: **النهاية في غريب الحديث والأثر**؛ تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، دط، 1399هـ
6. ابن السكيت، يعقوب بن إسحاق: **إصلاح المنطق**؛ تح: محمد مرعب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 2002.
7. ابن سيّده، علي بن إسماعيل: **المحكم والمحيط الأعظم**؛ تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000.

8. ابن قتيبة الدينوري: **غريب الحديث**؛ تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1397ه

9. ابن قتيبة، الدينوري: **الشعروالشعراء**؛ دار الحديث، القاهرة، ط1423.

10. ابن منظور، محمد بن مكرم: **لسان العرب**؛ دار صادر، بيروت، ط3، 1414.

11. أحمد مختار عبد الحميد عمر وآخرون: **معجم اللغة العربية المعاصرة**؛ القاهرة، عالم الكتب، ط1، 2008.

12. أحمد مختار عمر: **معجم الصواب اللغوي**؛ القاهرة، عالم الكتب، ط1، 2008.

13. الأزهري، محمد بن أحمد الهروي: **تهذيب اللغة**؛ تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001.

14. الأصبهاني، أبو نعيم: **الطبّ النبويّ**؛ تح: مصطفى خضر دونمز التركي، دار ابن حزم، ط1، 2006.

15. بكاي، سليمان بن سعيد: ألفاظ النخلة بالعربية والمزابية

16. الجاحظ، عمرو بن بحر: **البيان والتبيين**؛ بيروت، دار ومكتبة الهلال، ط1423ه

17. الجوهري: **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**؛ تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم الملايين، بيروت، ط4، 1987.

18. الخليل بن أحمد: **العين**؛ تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السمرائي؛ دار ومكتبة الهلال، دط.

19. رينهارت بيتر آن دوزي: **تكملة المعاجم العربية**، العراق، وزارة الثقافة والإعلام، ط1، 1980.

20. الهاشمي، أحمد: **السحر الحلال في الأمثال والحكم**؛ بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط.

21. يوسف الحاج سعيد: **تاريخ بني مزاب، دراسة اجتماعية و اقتصادية وسياسية**، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط4، 2017.

22. اليوسي، نور الدين: **زهر الأكم في الأمثال والحكم**؛ تحقيق: محمد حجي ومحمد الأخضر، الدار البيضاء، المغرب، الشركة الجديدة، ط1، 1981.